المحاضرة التاسعة	المدائح النبوية و المولديات في الشعر المغربي	الشقراطيسي/الثغري التلمساني

مراجع المحاضرة:

1. **محمود سالم محمد المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي دار الفكر الطبعة الأولى : 1417**
2. **بدوي، أحمد أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية.**

توطئة: المدائح والمولديات:

الأندلس والمغرب جزءان مترابطان من عالم واحد كان يعرف في القديم عند المشارقة بالمغرب الإسلامي، وقد ظلا يتمثلان طوال العصور الوسطى حضارة واحدة مشتبكة العلاقات في السياسة والفكر والاجتماع. وفي العلاقات البشرية المستمرة من هجرة واختلاط وتزاوج. وقد كونت صقلية مع بلاد المغرب وشمالي إفريقية والأندلس وحدة ثقافية ذات طابع خاص جوهره التراث الثقافي العربي الإسلامي، وساعد في حفظه كثرة الانتقال والاتصال. وقد أدت الأندلس وصقلية دوراً بارزاً في النهضة الأوربية عن طريق نقل هذا التراث كما يشهد بذلك الباحثون، مما يجعل الحديث عن فضل الحضارة العربية الإسلامية من الوقائع التاريخية الثابتة.

تتأسس معاني المديح النبوي حول شخصية الرسول الكريم بكل تفاصيلها، مثل المقدمات التي سبقت ولادته الكريمة، وحياته قبل البعثة، وكراماته التي عرفت عنه، وسيرته بين أصحابه، والمكانة العليا التي وضع فيها بين الأنبياء والناس، وما عرف عنه من فضائل وصفات ، **يرى الباحث محمود سالم محمد** أن فن المديح النبوي قد تكامل في عهد الشقراطيسي، و من ثم انتشر في جميع الأقطار العربية، وتعددت مذاهبه وطريقة تناوله، وافتن الشعراء في شكل القصيدة وأسلوبها.

لقد تكاملت في العصر الفاطمي والأيوبي المدحة النبوية، ووصلت إلى العصر المملوكي على جانب كبير من النضج الفني، حيث استقر هذا الفن وشاع شيوعا كبيرا، وظهرت فيه القمم، والدواوين المنفردة الكثيرة، والشعراء الذين وقفوا حياتهم وفنهم على النظم فيه، والتفت إليه النقاد، يحاولون وضع قواعد ثابتة له.

المدائح النبوية عند الشقراطيسي: قصيدة أبو محمد عبد الله بن زكريا الشقراطيسي [1] ". فريدة في بابها، ، وهي قصيدة طويلة، جاء في وصف أحد المخطوطات التي أخذ صاحبها بشرح وتفسير لامية الشقراطيسي: «مضى شهاب الدين المقدسي إلى قصائد في مدح الرسول، شرحها، وسمّى شرحه (المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية) ، وهي القصيدة اللامية المشهورة بالشقراطيسية.. وذات الأصول في مدح الرسول، وذات الدرر في معجزات سيد البشر، وذات القبول في مفاخر الرسول، ومفرجة الغمم في مدح سيد الأمم، ووداع الزائر للنبي الطاهر، وشكوى الاشتياق إلى النبي الطاهر الأخلاق» [2] ".

نظم الشقراطيسي في هذه القصيدة سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبدأها بقوله:

الحمد لله منّا باعث الرّسل ... هدى بأحمد منّا أحمد السبّل

خير البريّة من بدو ومن خضر ... وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

توراة موسى أتت عنه فصدّقها ... إنجيل عيسى بحقّ غير مفتعل [3]

قصر عبد الله بن زكريا الشقراطيسي قصيدته على إيراد معجزاته صلّى الله عليه وسلّم وسيرته، ثم أخذ يسرد معجزاته، مبتدئا بما ظهر عند مولده، عرض بعد ذلك سيرته العطرة، ودعوته المباركة، وما لاقاه مع المسلمين الأوائل في سبيل هذه الدعوة، حتى تمّ لهم النصر وفتح مكة ولم ينس الشقراطيسي أن يتحدث عن شجاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وانتصاره على أعدائه، وجهاد الصحابة معه، وغير ذلك من الأحداث الكبيرة في سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. لقد أضرب القراطيسي عن المقدمات، ودخل مباشرة في المديح، وأظهر منذ بداية القصيدة أنه يريد أن يقول ما يستطيع نظمه من سيرة الرسول الكريم، لذلك استحالت القصيدة إلى جمع للأخبار والروايات، وقسرها صاحبها على الدخول في قالب النظم، فظهر أثر ذلك واضحا منذ البداية.وشرع في نظم المعجزات نظما خالصا، لم يتدخل فيه، ولم يضف عليها مشاعره، حتى إذا حشد من المعجزات ما ارتاح إلى وجوده في قصيدته، التفت إلى السيرة وأحداثها، فنظم منها ما شاء، وبعد أن نظم السيرة، واكتفى بما نظم، التفت إلى صاحب السيرة العطرة، فشرع في مدحه قائلا:

---

(1) الشقراطيسي: عبد الله بن زكريا الشقراطيسي، نسبة إلى شقراطيسية من بلاد الجريد بتونس. النويري: نهاية الأرب 18/ 347.

(2) بدوي، أحمد أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص 44.

(3) النويري: نهاية الأرب 18/ 347.

حجزت بالأمن أقطار الحجاز معا ... وملت بالخوف عن خيف وعن ملل

وأصبح الدّين قد حفّت جوانبه ... بعزّة النّصر واستعالى على الملل

تعرّقت منه أعراق العراق ولم ... يترك من التّرك عظاما غير منتثل [1]

لم يبق للفرس ليث غير مفترس ... ولا من الحبش حبش غير منجفل

وما أن يفرغ من الإشادة بما حققه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من انتصارات، وبما حققه المسلمون من فتوحات حتى يتوجه إلى الرسول الكريم متشفعا فيقول:

نحلتك الودّ عليّ إذ نحلتكه ... أحبى بفضلك منه أفضل النّحل

ولولا هذه الخاتمة التي يظهر فيها الشاعر لما اختلفت القصيدة في شيء منها عن المتون العلمية، وعن المنظومات التعليمية، فليس للشعر في هذه القصيدة نصيب كبير، خاصة مع طغيان الصنعة الثقيلة عليها.

وقد اقتدى كثير من الشعراء، والعلماء منهم خاصة، بهذه القصيدة فأصبحت مدائحهم في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منظومات تسرد سيرة الرسول الأمين ومعجزاته.

(1) منتثل: مستخرج.